سرّ القربان كدليل تاريخي

www.muhammadanism.org
September 12, 2006
Arabic

تأليف

و. هـ . ت. جيردنير
(١٨٧٣م – ١٩٢٨م)

١٩١٠م

طباعة
مطبعة النيل المسيحيّة
شارع بولاق
القاهرة، مصر

نشر على الإنترنيت بتاريخ ١ أغسطس ٢٠٠٦م

The Eucharist as Historical Evidence

by

W. H. T. Gairdner
(1873 – 1928)

1910

PRINTED BY
THE NILE MISSION PRESS
BOULAC ROAD
CAIRO, EGYPT

Published on the web on August 1, 2006

تمهيد

بعد حمد الله نقول أنّ هذه النبذة مأخوذة عن مجلة الشرق والغرب (بتنقيح وزيادة). والمقصود منها إثبات موت سيّدنا عيسى عليه السّلام بالبيّنات الدّامغة والبراهين التّاريخية التي لا يمكن دحضها أو نكرانها. ولا يخفى أنّ المسلمين لا ينكرون فريضة العشاء الرّباني ولكنّهم ينكرون موت عيسى المسيح على الوجه الموصوف في الإنجيل. فغايتنا إذاً هي أن نثبّت لهم أنّ الفريضة المذكورة دليل قاطع على موت المسيح وذلك بالاستناد على الأقوال الثّابتة والشّهادات التّاريخية التي لا يرتاب أحد في صحّتها. فإذا تمكّنا من إقناعهم أنّ المسيح هو الذي أوصى بحفظ فريضة العشاء الرّباني، لم يبقَ لهم مجال أن ينكروا حقيقة موته لأنّ هذه الفريضة إنما هي رمز الى «كسر جسده» «وسكب دمه» – عسى أن يستخدم الله هذه النّبذة لخير ملكوته ولهداية الجميع إلى الصّراط المستقيم إنه حسبنا ونعم الوكيل.

على

حقيقة موت عيسى المجيد

(١)

الخبز والخمر – إلى ماذا يرمزان

لا شيء يحزن قلوبنا أكثر من إنكار إخواننا المسلمين موت يسوع المسيح ورفضهم البركات النّاجمة عن ذلك. والحقّ أنه كلّما أحيا المسيحيّون العائشون في البلاد الإسلاميّة فريضة العشاء الرّباني وذكروا موت سيّدهم يسوع المسيح صرخوا من أعماق قلوبهم قائلين «ألا ليت الحجاب ينشقّ والسّتر ينكشف» وصلّوا من أجل إخوانهم المسلمين الذين يزيدون في مرارة هذه المأساة علقماً بقولهم أنّ المسيح لم يمت قطّ. ولعلّ نكرانهم هذا هو أوخم عاقبة من نكرانهم سائر التعاليم المسيحيّة الأخرى لأن قصّة موت المسيح تليّن القلب الصّلب وتنبّه الضّمير النّائم.

ولذلك لا نرى بُداً من أن نثبّت لإخواننا المسلمين أمراً هو عندنا بمثابة أوليّة لا يحتاج الى برهان، ألا وهو موت يسوع المسيح – ذلك الفادي الذي قضى طوعاً واختياراً عن آثام البشر لكي ينيلهم الغفران التام. وسنبني برهاننا على وجود فرض(*) لا يزال يتمّم اليوم في كلّ العالم. وبعبارة أخرى إنّنا سنحاول أن نثبّت حادثة واقعيّة قديمة بأمور نشاهدها اليوم.

إنّ الكنائس المسيحيّة في سائر أصقاع العالم تحفظ اليوم فريضة تدعى فريضة العشاء الرّباني وذلك في اليوم الأول من الأسبوع (غالباً) أي في يوم الأحد. ومهما تفاوتت طقوس هذه الفريضة في الكنائس المختلفة فلا بدّ فيها من أمر ضروري وهو كسر الخبز وأكله وسكب قليل من نتاج الكرمة وشربه وذلك إطاعة للوصيّة التي فرضها السيّد المسيح في الليلة الأخيرة قبل موته إذ أخذ خبزاً وكسره وسكب نتاج الكرمة وناوله لتلاميذه قائلاً لهم أنّ الخبز هو جسده المكسور من أجل البشر وأن الخمر هو دمه المسفوك من أجل سلامة الإنسان ثم أمرهم أن يفعلوا ذلك لذكره.

(*) الفرض (ويعرف عند المسيحيّين بالفريضة) هو ما يرجع مصدره الى أمر إلهي فرض في وقت معيّن كالحج والطواف بالكعبة مثلا عند المسلمين. وعيد الفصح عند اليهود والعشاء الربّاني عند المسيحيّين.

وهذا ما تفعله الكنائس المسيحيّة في العالم وقد تسلّمت هذه الفريضة من الأجيال السّابقة كما يتّضح من النّظر في تاريخ كلّ قرن من القرون الميلاديّة على حدة. فإذا تتبّعنا هذه الفريضة راجعين الى الزّمن الذي أوصي فيه بها، نرى أنّ المسيح في ليلة معيّنة أمر في الحقيقة بحفظ هذه الفريضة (أي إجراء «الكسر» «والسّكب») تذكاراً له. والحقّ أنّ تواتر التّقاليد الإسلاميّة وشهادتها لصحّة القرآن ليسا بأمتن من تواتر التّقاليد المسيحيّة وشهادتها لهذه الفريضة.

وإذا صحّ هذا نتج عنه:- (١) أنّ يسوع المسيح سبق فعلم في الحقيقة بأنه سيموت ميتة شنيعة «فيكسر» جسده ويسفك دمه وأنّه عرف أهميّة ذلك الموت وفوائده فأسّس تلك الفريضة التّذكارية.

(٢) إنه مات فعلاً. ولا خلاف في هذا القول إذا ثبت الأول لأنّ الجميع يعترفون بأنّ المسيح كان نبيّاً فليس من الممكن إذاً أن يكون قد أخطأ في نبوّته عن حادثة مهمّة كهذه سيّما وأنّ تلك الحادثة (أي موته) قد كانت عنده الغاية التي جاء من أجلها الى هذا العالم. هذا وأنّه لو لم يسفك دمه ويمت كما تنبأ، ما حفظ التّلامذة وصيّته ولا أوصوا بها للأجيال التّابعة.

(٣) وهنالك أمر ثالث يثبّته حفظ هذه الفريضة وهو أنّ إجراءها في اليوم الأول من الأسبوع دليل على قيامة المسيح من بين الأموات. إلا أنّ هذه النّتيجة، وإن تكن كبيرة الأهمية في حدّ ذاتها، ليست موضوعنا الآن لأنّ جميع المسلمين يؤمنون بأنّ المسيح ارتفع حقاً، فإذا آمنوا بأنّه قد مات، آمنوا بأنّ ارتفاعه كان من الموت.

ويخال لنا أنّ هذا البرهان هو أقوى من البرهان التّاريخي على الصّلب نفسه لأن المسلم يتّفق مع المسيحي على أنّ الصّلب حصل تماماً ولكنه ينكر أنّ الشّخص الذي صلب كان المسيح ثم يطلب منّا نقض إنكاره هذا!...

ولكن فريضة العشاء الرّباني لا ترجع بنا الى حادثة فعليّه مجرّدة فقط، بل إلى حادثة فيها لفكر هذا النّبي وكلامه القدح المعلى. ولا يخفى أنّ المسلم إذا اقتنع بأنّ القول الفلاني هو قول النّبي الفلاني لم يتأخّر عن التّسليم به والعمل بموجبه. وعلى ذلك فإذا اقتنع بأنّ المسيح هو الذي أوصى بهذه الفريضة فلا يتأخّر عن الإيمان بها وبما تشير إليه لأنه إذا كانت جميع الأجيال منذ زمن المسيح قد حفظت هذه الفريضة إطاعة لوصيّة السيّد فلا يبقى للمسلم سوى ان يسلّم بموت يسوع كفّارة عن العالم. لأنه إذا سلّمنا بحقيقة مصدر هذه الفريضة يكون المسيح قد مات وجسده قد كسر ودمه قد سفك. هذا وإنّ في نفس حفظ التّلامذة لوصيّته وتسليمها للأجيال التّابعة برهاناً على أنّ المرموز إليه في تلك الفريضة قد تمّ في الحقيقة.

وهنالك أمر آخر قد يوافق عليه الأخ المسلم وهو أنّ حفظ فريضة كهذه لا يمكن أن يكون اعتباطاً أي بدون سبب. فالحج(*) إلى مكّة مثلاً هو برهان على وصيّة محمّد بإجرائه واحترام الكعبة. ويحقّ للمسلم أن يستشهد به على صحّة الآيات التي تشير إليه أكثر من أن يستشهد على وجوب إتمامه بتلك الآيات. وكذلك نقول أنّ ركام الحجارة التي تقذف بها الحجّاج خارج مكّة هي برهان على الأمر بقذفها. ولا يخفى أنّ النّاس في الشرق كثيراً ما يقلّدون رئيسهم الدّيني في أمور لم يوصهم بها فكم بالحري إذا كانوا مأمورين بحفظها؟ جاء في أحد الأحاديث أنّ الخليفة شوهد ذات يوم راكباً جملاً وهو يدور به فلمّا سُئل عن السّبب قال لست أعلم ولكنّني رأيت نبيّ الله يفعل ذلك – فكم بالحري لو كان النّبي قد أوصى به؟ فالقيام بالفرائض الرّمزيّة في الشّرق وحفظها من جيل إلى جيل هو أمر معروف بل عادة متملكة في النّفس وإذا أمكننا تعزيزها بالتّواتر ثبت أنها حقيقة تاريخيّة. فوجود محمّد وفرضه الحجّ على المسلمين وغير ذلك من الأمور لا يثبتها الحجّ اليوم أكثر مما تثبّت فريضة العشاء الرّباني موت المسيح وسفكه دمه.

ورُبَّ سائل يقول: أين براهينكم التّاريخية المخطوطة. فليس لنا إذ ذاك إلا أن نعرضها له. ولسنا نخال أحداً من المسلمين ينكر أنه حيثما توجد الدّيانة المسيحيّة فهنالك تتمّم فريضة العشاء الرّباني. فالبراهين المخطوطة مالئة كتب الأجيال والعصور المسيحيّة كلها. ولا يخفى أنّ شروط التواتر تامّة هنا وهي اتفاق سائر الأجيال والعصور على حفظ هذه الفريضة وتسليمها الى الأجيال التّابعة وعدم وجود باعث على الغش والخديعة. وليت شعري من يقدم على تلفيق قصة كهذه عالماً كان بها أم جاهلاً؟ ومن هو الرّجل الذي يريد ان يخدع النّاس بأنّ المسيح مات إذا كان هو نفسه لا يعتقد بذلك؟ والحقّ أنه لو قيل أنّ تلامذة المسيح حاولوا أن يكذبوا موت المسيح لكان ذلك أقرب الى عقل البشر وأشبه بما أدعاه المسحاء والأنبياء الكذبة كما فعل أتباع الحاكم بأمره مؤسّس شيعة الدّروز.

ولننظر الآن في البراهين التّاريخية الأخص التي تثبت أنّ فريضة العشاء الرّباني كانت تحفظ في العصور الأولى أي منذ أزمنة الرّسل الذين تسلّموها من السّيد المسيح (مما يثبت أنّ المسيح أوصى بحفظها إشارة الى موته وسفك دمه) وإننا نقسم لإخواننا المسلمين على أنّ ما سنذكره لهم مقتبس عن أقوال المؤرّخين المعروفين الذين لا يشك أحد في صحة أقوالهم. وسنضرب صفحاً عن الاستشهاد بالكتب التي يرفضها أعداء المسيحيّة ليس من المسلمين فقط بل من كفار الغرب أيضاً وذلك لكي لا يبقى لأعدائنا ما يحتجّون به علينا.

(*) أما إجراء عرب الجاهليّة لهذه الفريضة قبل زمن محمّد فلا يؤثر في قوّة الحجّة.

وسنذكر ما قد قيل وما يقال علينا لنثبّت للجميع بأن فريضة العشاء الرّباني كانت تحفظ قبل الهجرة ولا تزال تحفظ إلى يومنا هذا. ومتى أثبتنا ذلك، أثبتنا أنّ المسيح هو الذي أوصى به وذلك رمزاً الى موته وسفك دمه.

(١) أسهب الكتاب في كلّ العصور والأجيال في الكتابة عن هذه الفريضة إسهاباً لا يسعنا تفصيله هنا سيّما وأنّ أسماء أكثر أولئك المؤلفين غير معروفة عند المسلمين (إلا أسماء الذين اشتهروا منهم كلوثر وكلفن وتوماس أقويناس الفيلسوف ويوحنّا فم الذّهب وأوغسطينوس وأثناسيوس وأوريجانوس وغيرهم) جميع هؤلاء قد أفاضوا في هذا الموضوع واتفقوا على الأمور الأساسيّة فيه (وإن اختلفوا في تأويل بعض تفاصيله العرضيّة) وأجمعوا على أنّ المسيح كسر في الحقيقة خبزاً وناول خمراً وأوصى بإعادة هذه الفريضة وحفظها تذكاراً لجسده المكسور ودمه المسفوك.

(٢) لدينا كثير من كتب الطّقوس التي يرجع عهدها الى العصور المسيحيّة الأولى. وهي تذكر الصّلوات التي كانت تتلى عند تأدية هذه الفريضة. ومن هذه الكتب ما هو باللاّتيني ومنها ما هو بلغات أخرى مما كان يستعمل في الكنائس المصريّة والشرقيّة القديمة ويرجع عهده الى المئة الرابعة للميلاد أي الى ما قبل زمن الهجرة بثلثمائة سنة ومن تلك طقس القدّيس يوحنّا فم الذّهب الذي تمارسه الكنيسة القبطيّة الى هذا اليوم وقد نقل الى اللّغة العربية(*) وطبع في مطبعة الوطن.

والأمر الجوهري في جميع ذلك هو كسر الخبز وسكب الخمر إطاعة لوصيّة المسيح وتذكاراً لجسده المكسور ودمه المسفوك.

(٣) هنالك أيضاً قوانين أعدّتها المجامع الكنسيّة منذ مجمع نيقية (سنة ٣٢٣ ب. م) وجميعها تذكر هذه الفريضة التذكاريّة وتشرح كيفيّة وجوب القيام بها.

(٤) وأخيرا لدينا كتب ومؤلفات عديدة لأقدم الكتاب المسيحيّين وهي تذكر هذه الفريضة وتفاصيلها وتبسطها كأنّها فريضة مقرّرة استلمتها الآباء من الأبناء فعمّت ممارستها عند جميع الكنائس وأصبحت جوهر العبادة. وبما أنّ الكتابات المذكورة توصل عهد هذه الفريضة بالمئة الأولى للميلاد فسنقتبس بعضها بحسب ترتيبها التّاريخي رجوعاً إلى أن نصل إلى العهد الجديد غير معتبرين تلك الكتابات موحى بها بل منزلينها منزلة مؤلفات اعتياديّة معروفة تواريخ أكثرها التقريبيّة. وبعبارة أخرى إننا نستشهد بتلك المؤلفات لا باعتبارها موحى بها بل باعتبارها تاريخاً يشهد لما كان يجري في زمن مؤلفيها.

(*) خولاجي. كتاب ما يجب على الشمامسة من القراءة في الخدمة والتراتيل.

ولنترك مؤلفي المئات الخامسة والرّابعة والثالثة بعد المسيح لأن كتبهم مشحونة من الأقوال التي تختصّ بهذه الفريضة حتى أننا لا نعلم ماذا نقتبس وماذا نهمل منها. ونخصّ بالذّكر من أولئك المؤلّفين يوحنّا فم الذهب وأوغسطينوس وكيرلس الإسكندري وكيرلس الأورشليمي وبازيليوس وأثناسيوس وترطليانوس وأوريجانوس. هذا وإنّ مفسري القرآن وأئمّة المسلمين لم يذكروا من وصايا محمّد عن الصّـــوم والصلاة أكثر مما ذكره المؤلفون المذكورون عن فريضة العشاء الرّباني وأصلها وصفتها ومغزاها. أما أصلها وصفتها فلم يختلفوا فيهما قط بل أجمعوا على أنّ كسر الخبز وسكب الخمر هما لتذكار موت المسيح وسفك دمه.

ومن كتّاب المئة الثانية الذين أطالوا البحث في هذه الفريضة إكليمندس الإسكندري (سنة ١٥٠ – ٢٢٠). قال(*) – «فأخذ المخلّص خبزاً وباركه ثم كسره وقدّمه قائلاً خذوا كلوا هذا هو جسدي ثم بارك الخمر وقال خذوا واشربوا هذه من دمي». (وقد ذكر هذا الكاتب في مكان آخر ما حدث بعد مناولة الخبز والخمر حسب العادة).

ومن معاصري هذا الكاتب آرينيوس (سنة ١٣٥ – ٢٠٢ ب.م) أسقف غاليا، وكان قد تربّى في أحضان الكنيسة الشّرقية على يد پوليكاربوس تلميذ يوحنّا الرّسول. وقد أفاض هو أيضا في ذكر فريضة العشاء الرّباني وتناول الخبز والخمر وعلاقتهما بجسد المسيح ودمه وهاك بعض أقواله منقولة حرفيّاً عن اللاّتينية:– «إن النّاس الأشرار ينكرون خلاص الجسد ويكرهون تجدّده قائلين أنّه لا يمكن أن يخلّد ولكن إذ كان الجسد لم يخلص فإن السّيد لم يفدنا بدمه وليست كأس العشاء الرّباني رمزاً إلى دمه ولا الخبز الذي نكسره إشارة الى جسده» ومعنى ذلك أنّ دعاوي هؤلاء الناس باطلة لأنّ هذه الأمور الثّلاثة هي حقائق راهنة.

وممّن عاش في أوائل ذلك القرن أيضاً يوستنيانوس الفيلسوف الذي درس في أثينا ونشر كتابه الذي يدافع به عن الدّيانة المسيحيّة. ولحسن الحظ أنّه كتب لقوم لا يعرفون الدّيانة المسيحيّة فأسهب في تفصيل فريضة العشاء الرّباني بخلاف الذين كتبوا لأجل المسيحيّين فأشاروا الى الفريضة إشارة بسيطة بدون ذكر التفاصيل لأن المسيحيّين يعرفونها ولا يحتاجون الى الإسهاب عنها. وأما يوستنيانوس فإنه أسهب في شرح الفريضة لكي يقف أصدقاؤه الوثنيّون على دقائقها وتفاصيلها قال(*):

(*) هذا الكلام مترجم عن الأصل اليوناني حرفياً.
(*) مترجم حرفياً.

«وأقول أيضاً أنّ الصّلوات وتقدّمات الشّكر التي يرفعها مَن هُم أهلٌ لأن يرفعوها هي التّقدمات الوحيدة الكاملة التي تسرّ الله. لأنها وحدها الأمور التي قد تسلّمها المسيحيّون أباً عن جد كما في فريضة العشاء التّذكارية، ناشفاً كان ذلك العشاء أم سايلاً، لأننا به نتذكر الآلام التي احتملها ابن الله بجسده» اه.

وقال في موضع آخر:- «إننا ندعو هذا العشاء العشاء الرّباني ولا يسمح لأحد أن يتناوله ما لم يكن مؤمناً بعقائدنا وتعاليمنا وقد اعتمد لأننا لا نأكل من الخبز ونشرب من الخمر كأنهما أمران بسيطان بل باعتبار أنّ يسوع المسيح المخلّص إذ تجسّد بكلمة الله اتّخذ لحماً ودماً لخلاصنا. وهكذا نتعلّم أنّ هذا العشاء – المبارك بصلاة «الكلمة» والمتحوّل الى غذاء للّحم والدّم – هو لحم يسوع المسيح المتجسد ودمه لأن الرّسل في كتبهم المدعوّة بشائر قد ذكروا أنّ المسيح تناول خبزاً وبعد ان شكر قال: اصنعوا هذا لذكري هذا هو جسدي.

ثم أخذ الكأس وبعد أن شكر قال: هذا هو دمي. ثم أعطاها لهم فقط» (أنظر يوستنيانوس الشّهيد الجزء الأول والفصل ٦٦).

وقد وصف المؤلف في الأصحاح الذي يلي ذلك تفاصيل هذه الفريضة. فقال:- «إنّ جميع الذين يسكنون في المدن والقرى يجتمعون معاً في يوم الشمس (أي الأحد) في مكان واحد فتتلى مذكّرات الرّسل وأقوال الأنبياء بقدر ما يسمح الوقت ثم يقف الجميع ويصلّون ومتى انتهت الصّلاة (أنظر الفصل ٦٦) يؤتى بخبز وخمر وماء للتّوزيع على الجميع فيتناول منها كلّ من الحاضرين بعد تقديم الشّكر. ويوم الأحد هو اليوم الذي نجتمع فيه معاً (لهذا الأمر) لأنه اليوم الأول الذي خلق فيه الله العالم جديداً بعد أن كان عالم مادة وظلام. وفيه قام مخلصنا يسوع المسيح من الموت. لأنه صلب في اليوم الذي قبل السّبت وظهر لتلامذته ورسله في اليوم الذي بعد السّبت وعلّمهم نفس الأمور التي نطرحها اليوم أمامكم لكي تنظروا فيها وتتعلموها».

هذا وليس عندنا ما نزيد على هذه الشّهادة سوى أنّ المسيحيّين المتقدمين في السّن على أيام يوستنيانوس إمّا أنهم كانوا يعرفون بعض الحواريين أو أنهم كانوا قد تربّوا في أحضان الكنيسة التي أسّسها أولئك الحواريّون في الجيل السّابق.

وممّا يؤيّد وصف يوستنيانوس لتفاصيل هذه الفريضة ما كتبه أحد المؤرّخين الرّومانيّين في نفس ذلك القرن ولم يكن مسيحيّاً بل متوظفاً عين لكي يفحص أحوال المسيحيّين وهو پلني المؤرخ الشّهير المشهورة رسائله الى الامبراطور تراجانوس في ذلك العهد. وهو يرجع في بحثه إلى ما قبل زمن

يوستنيانوس بسنة ولعلّه شاهد موت بولس وبطرس في رومية وكان معاصراً للحواري يوحنّا الذي كان قد شاخ وتقدّم في الأيام. وهاك ما كتبه الى الامبراطور تراجانوس (مترجماً عن الأصل اللاّتيني) قال:-

«... إنّ المسيحيّين أقروا عند الاستنطاق أنّ ذنبهم أو غلطهم – لتسمّه جلالتك ما تشاء – هو أنّهم اعتادوا أن يجتمعوا معاً في يوم معيّن – قبل الفجر – وينشدوا ترنيمة للمسيح كأنّه إله ويجدّدوا العهد (أي السّر) الذي يضمّهم معاً بتعهّدهم أن لا يخطئوا بل يمتنعوا عن كلّ سرقة ونهب وزنى وأن لا يخونوا دينهم بل اذا طلب منهم تسليم وديعة لا يمتنعون وبعد ذلك يتفرّقون حسب عادتهم ثم يجتمعون ثانية لتناول طعام ....»

فقد أشار الكاتب بكلمة «عهد» أو «سر» (والكلمة اللاّتينية تعني الإثنين) إلى هذا الطقس وماهيّته – أي العشاء الرّباني – ولكنّه لم يطل البحث فيه بالتّفصيل لأنه وثني لا مسيحي. ومع هذا فإنه يسهل علينا أن نعرف المقصود من كلامه متى قابلناه بكلام يوستنيانوس.

ولنلتفت الآن الى القدّيس أغناطيوس (نحو سنة ٥٥ – ١٠٧ ب. م) الذي عاش على أثر عصر الرّسل ومات بعيد المئة الأولى للميلاد وكان معاصراً للحواري يوحنّا في أواخر حياته. وكان پوليكاربوس صديقه تلميذاً ليوحنّا هذا وقد كتب عدّة رسائل إلى الكنائس التي كان في أبرشيّتها. فأغناطيوس إذاً كان قريباً جدّاً من عصر المسيح وهو يقول في الأصحاح السّابع من رسالته الى كنيسة إزمير (مترجماً عن الأصل اليوناني):- «إنّ البعض يمتنعون عن تناول الخبز والخمر لأنهم ينكرون أنّ الطعام الرّباني هو جسد يسوع المسيح الذي احتمل خطايانا والذي رفعه أبوه الصّالح». – ويقول أيضاً في الأصحاح العشرين من رسالته الى أهل أفسس:- «أطيعوا الأسقف والمشيخة بعقل متّحد كاسرين خبزاً واحداً هو دواء خلودنا لأنّ هنالك جسداً واحداً لربّنا يسوع المسيح وكأساً واحدة لوحدة دمه» اه.

ولا يخفى أنّ غاية أغناطيوس (وغايتنا نحن أيضاً) هي أن يبرهن أنّ تناول العشاء الرّباني (أي كسر الخبز وأكله وسكب الخمر وشربه) يستلزم الإيمان بحقيقة جسد المسيح المكسور لأجلنا ودمه المسفوك عن معاصينا. قال يوحنا فم الذهب في الأصحاح الثالث والخمسون من ملاحظاته على إنجيل متى (مترجماً عن اليونانية):- «إذا كان المسيح لم يمت فإلى ماذا يرمز الخبز والخمر؟» فليلاحظ الأخ المسلم هذا القول.

وهنالك حلقة أخرى تربط المئة الثانية للميلاد بعصر الرّسل وهي الكتاب المعروف «بتعاليم الرّسل الإثني عشر*». وأعظم المنتقدين الجاحدين يعترفون بأنّه كتب في النصف الأول من المئة الثانية للميلاد وقد جعل بعضهم تاريخه بين سنة ٨٠ و ١٠٠ ب. م وممّا جاء فيه بخصوص العشاء الرّباني قوله:- «وفي يوم الرّب (أي اليوم الأول من الأسبوع) اجتمعوا معاً واكسروا خبزاً وقدّموا شكراً» وقد جاء فيه أيضاً صورة الصّلاة البسيطة التي يجب أن تقدّم عند تكريس الكأس والخبز إذ يقول:- «وأمّا من جهة تقديم الشّكر عند تناول العشاء الرّباني فلا يجب أن تهملوه. قولوا أوّلاً عند تناول الكأس: نشكرك أيها الآب لنتاج كرم ابنك داود المقدّس الخ.. وقولوا عند تناول الخبز المكسور: كما تشتّتت كسر هذا الخبز على الجبال ثم اجتمعت وصارت قطعة واحدة، هكذا لتجتمع كنيستك من أقطار الأرض الى ملكوتك الأقدس لأن لك المجد والقوة بيسوع المسيح الى أبد الآبدين آمين. ولكن لا يأكل أحد من هذا الخبز ولا يشرب من هذه الخمر إلاّ الّذين قد تعمّدوا باسم الرّب» اه.

وهذا يأتي بنا الى عصر كتابات الرّسل الذي يمتد من سنة ٤٥ ب.م إلى نهاية المئة الأولى للميلاد. وهنا نكرّر ما قلناه سابقاً وهو أننا لا نعتبر هذه الكتابات (هنا) موحى بها(*) بل أننا نستشهد بها كما استشهدنا بالكتب السّابقة او كما نستشهد بابن خلدون والمقريزي مثلاً أو بكتب أي مؤلف آخر يعتمد على شهادة الغير ممّن تقدّموهم وأما بولس فإنّه كان معاصراً للمسيح وصديقاً لمعايني السيّد (سنة ١ – ٦٧) ولا يخفى أنّ أعظم كفار الغرب قد وضعوا هذه المؤلفات تحت النّقد المدقّق ليعرف حقيقة مؤلّفها وتاريخ تأليفها. فانتهوا الى النّتيجتين الآتيتين:-

(١) إنّ مؤلف البشارة الثانية من الإنجيل هو فرد من أقدم أفراد الكنيسة الأولى وقد اعتمد على شهادة رائي عين. أما تاريخها فقبل السّنة السبعين للميلاد.

(٢) إنّ الرّسالة الأولى إلى أهل كورنثوس كتبها بولس الرّسول صديق بطرس ورسل المسيح الآخرين في سنة ٥٥ ب.م.

ترى ماذا تثبّت لنا هاتان الشهادتان؟

لنبدأ بالثانية – نرى أن بولس يشير إلى العشاء الرّباني كأنه فريضة كانت الكنيسة تتمّمها أيامئذ كثيراً (لا يخفى أنّ بولس كان معاصراً للمسيح وكان يعرف سائر الكنائس الموجودة أيامئذ منها الكنيسة الأصلية بأورشليم. وكان يعرف أيضاً سائر التلامذة الأصليين الذين ظلّوا مع المسيح الى آخر أيّامه على

---

* لا يجب ان يفهم من هذا العنوان أن الكتاب هو من مؤلفات الرّسل بل أنه يحتوي على تعاليمهم.

(*) أجل إننا نعتبرها موحى بها ولكننا في هذا المقام ننظر اليها ككتب تاريخية حسماً للشغب.

الأرض) فهو يقول في رسالته الأولى الى أهل كورنثوس (ص ١٠: ١٦) مترجماً عن الأصل اليوناني:- كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح؟ الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح؟»- وهذا يبيّن لنا أنّ العشاء الرّباني يتألف دائماً من خبز مكسور وخمر مسكوبة وأنّه فريضة تذكارية.

فضلاً عن هذا أنّ بولس يصف في الأصحاح التّالي من نفس هذه الرّسالة كيفيّة اجتماع تلك الكنيسة (كنيسة كورنثوس) المخالف للنّظام وينتقده ثم يقابل به اجتماع الكنيسة في الأصل لتناول العشاء الرّباني، الأمر الذي يجب أن يكون قدوة لسائر الكنائس في حفظ هذه الفريضة التذكارية. وهذا ما قاله بهذا الشأن (مترجماً عن الأصل اليوناني):-

«لأنّني تسلّمت من الربّ ما سلّمتكم أيضاً أنّ الرّبّ يسوع في اللّيلة التي أسلم فيها أخذ خبزاً وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي المكسور لأجلكم. اصنعوا هذا لذكري. كذلك الكأس أيضا بعدما تعشّوا قائلاً هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي. اصنعوا هذا كلّما شربتم لذكري. فإنكم كلّما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرّبّ الى أن يجيء» ثم إنّه ينبّه المسيحيّين الى معنى الكأس والخبز وما يرمزان إليه فيقول: «إذاً أيّ من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرّب بدون استحقاق يكون مجرماً في جسد الرب ودمه».

ليلاحظ القارئ أنّ في هذا الكلام زبدة الأفكار والأقوال والتعاليم والطقوس والعادات المختصة بجميع المسيحيّين ورسل المسيح في الجيل الذي عقب أول إجراء لتلك الفريضة التذكارية. وإننا نسأل هنا هل تذكر البشارة الثانية هذا الطقس وهل وصف ما حدث عند إجرائه لأول مرّة يوافق ما ذكره بولس كما علمه من الرّبّ او على الأقل بحسب ما شاهده من ممارسة هذه الفريضة في يومه؟ نعم إنّ المطابقة واضحة. وهاك ما قاله شاهد عين (والأرجح أنّه بطرس) لصديق له (يرجّح أنّه مرقس) مترجماً عن الأصل اليوناني:- مرقس ١٤: ٢٢ - ٢٤ «وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزاً وبارك وكسر وأعطاهم وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي. ثم أخذ الكأس وشكر وأعطاهم فاشربوا منها كلهم. وقال لهم هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين».

ونختم كلامنا بقولنا أننا لا ندّعي الوحي لإحدى الآيات السّابقة بل أننا قد ذكرناها شهادة لعادة شائعة عامة ترجع الى عصر الرّسل. ثم إننا لسنا نبحث في حقيقة الشّخص الذي رفع على الصّليب - يسوع كان أم شخصاً أخر - بل نحن نذكر ما سمعه وشاهده الرّسل من المسيح في تلك اللّيلة. وقطّ لم يدع مسلم منذ أيام محمّد حتى هذا اليوم أنه اشتبه في حقيقة الذين جلسوا لتناول العشاء في تلك اللّيلة. فقد ثبت إذاً ان يسوع جلس للعشاء مع تلاميذه الإثني عشر وأنّه كسر خبزاً وأعطاهم ليأكلوا وناولهم كأساً فيها نتاج

الكرمة ليشربوا. وأنه شبّه كسر الخبز بكسر جسده وسكب الخمر بسفك دمه ورمز بذلك الى التّضحية بنفسه وجعل دمه عهد النعمة الجديدة. وأوصى التّلامذة – أن بالكلام المنطوق او المفهوم – أن يداوموا على إجراء فريضة كسر الخبز وأكله وسكب الخمر وشربه تذكاراً لتلك الحادثة العظيمة التي كانت مزمعة أن تقع ألا وهي تسليمه وموته وكسر جسده وسفك دمه. وأخيراً قد رأينا جميع الأجيال المسيحيّة منذ عصر المسيح الى يومنا هذا تحافظ على هذه الفريضة هنا في مصر وفي كل العالم. فنختم إذاً كلامنا ضارعين الى إخواننا المسلمين أن يتّخذوا المسيح الذّبيح مخلّصاً وفادياً ويقولوا مع بولس الرّسول:–

«كلّما أكلنا هذا الخبز وشربنا هذه الكأس نخبر بموت الرّبّ إلى أن يجيء». ليسأل كلٌ منا نفسه:–

«إذا كان يسوع المسيح لم يمت، فإلى ماذا يرمز الخبز والخمر في العشاء الرباني؟»

ليت الله يقدّر الجميع على إدراك معنى هذا السؤال والإجابة عليه.

(٢)
يوم الأحد – إلى ماذا يرمز

بيّنّا في الفصل السّابق أنّ فريضة العشاء الرّباني هي دليل على موت يسوع المسيح سيّما إذا نظر إليها باعتبار الإشارات التاريخيّة فإن جميعها تشير إلى أنّ يسوع المسيح رسم هذه الفريضة في ذات ليلة وأوصى تلاميذه بحفظها جيلاً بعد جيل وأنّها إذاً رمزاً الى موته حقيقة.

وقد بيّنا أيضاً أنّ كل من يطرح ثوب التّعصّب مسلماً كان أو يهوديّاً أو نصرانيّاً لا يسعه إلا أن يؤمن بأنّ المسيح مات حقيقة وذلك – أولاً – لأنه (وهو على الأقل نبي) لا يمكنه ان يخطىء في نبوّته عن أمر حيوي هو من الأهمية بذلك المكان – وثانياً – لأنه لو لم يمت بعد نطقه بتلك النبوّة وإيصائه تلاميذته بحفظ فريضة العشاء الرّباني ما آمن تلاميذته به ولا حفظ العالم منذ ذلك اليوم إلى هذا فريضة لم يكن هنالك باعث على رسمها.

وسنثبت في هذا الفصل حقيقة أخرى بنفس الطّريقة فنبيّن أنّ يسوع المسيح لم يمت فقط في يوم الجمعة الذي تنبّأ عنه بل أنّه قام في يوم الأحد الذي عقب موته. ولا يخفى أنّ ذلك من الأمور العظيمة الأهمية التي يجب النّظر فيها. ولمّا كان من العار التّمسك بأذيال الخطأ حالة كون الحقيقة ظاهرة ظهور الشّمس في رائعة النّهار رأينا من واجباتنا ان نكشف السّتار عن هذه الأمور لإخواننا المسلمين واليهود.

السؤال المطروح أمامنا هو لماذا يحفظ المسيحيّون يوم الأحد ويقدسونه؟ ولماذا لا يتّفقون مع اليهود مثلا على حفظ يوم السّبت عوضاً عن يوم الاحد؟

إذا تمعّن الإنسان في الأمر يرى انه لا بدّ للمسيحيّين من باعث قويّ جدّاً يحملهم على استبدال يوم السّبت بيوم الأحد لأنّ في عملهم هذا كسراً في الظّاهر لوصيّة الناموس التي تأمر بجعل اليوم السّابع يوماً للرّاحة فكيف يمكن إحداث هذا للتغيير مع المحافظة على نصّ الوصيّة؟ لنفرض ان المسلمين طلب منهم ان يستبدلوا يوم الجمعة بيوم الخميس خلافاً لنص القرآن فهل يفعلون ذلك إلاّ لسبب كاف قوي؟

ثم إن المسيحيّين باستبدالهم يوم السبت بيوم الأحد لا يكسرون الوصيّة في الظاهر فقط بل يخالفون عبادة كانت شائعة منذ ألوف من الأجيال. فلا بدّ إذاً من وجود باعث قوي حملهم على ذلك.

إنّ ناموس العلّة والمعلول يصدق في العالم الأدبي والاجتماعي كما في العالم المادي. فاذا رأيت مظهراً غريباً من مظاهر الهيئة الاجتماعيّة نظرت حولك لتكشف علّة ذلك المظهر– ترى ما علّة تبديل المسيحيّين يوم السبت بيوم الاحد؟

ذلك لحادثة عظيمة وقعت في يوم الأحد ألا وهي قيام مؤسس الدّيانة المسيحيّة من الموت في ذلك اليوم.

لا نقول هذا القول اعتباطاً بل استناداً على الوقائع التاريخيّة والتواتر فإنّ المسيحيّين كانوا ولا يزالون يحفظون يوم الأحد تذكاراً لقيامة المسيح من الموت.

القرن الثالث

ولا حاجة بنا للرجوع إلى الأجيال المتأخّرة لأنّ البرهان يتوقّف على ما كان يفعله أهل العصور الأولى. فهاك ما جاء بهذا الشأن في أحد كتب الصّلاة منذ المئة الثالثة للميلاد ويدعى «نظام الرّسل»:–

«وفي يوم قيامة سيّدنا الذي هو يوم الرّبّ اجتمعوا (بصيغة الأمر) وصلّوا واقفين ثلاثاً تذكاراً للذي قام من الموت بعد موته بثلاثة أيّام وهو اليوم الذي تمّت فيه أقوال الأنبياء وكرازة الإنجيل وتقدّمه الضّحايا وهبة الطعام الرّوحاني».

القرن الثاني

وهاك شهادة أكليمندس الإسكندري عند نهاية المئة الثانية قال:–

«إنّ الإنسان يحفظ وصيّة الإنجيل حفظاً تاماً ويقدّس يوم الرّبّ تقديساً كاملا إذا امتنع عن كلّ شرّ ومجد وقيامة الرّبّ فيه».

وقال شاهد آخر في منتصف المئة الثانية (وهو يوستنيانوس الشّهيد) في «خطبة اعتذاره» الأولى التي رفعها إلى الامبراطور الرّوماني في سنة ١٥٠ ب.م.

«إنه في يوم الشمس (أي يوم الأحد) يجتمع أهل المدن والقرى في مكان واحد فتقرأ بشائر الرّسل الأربعة أو أسفار الأنبياء (ثم يصف الصّلوات وكيفيّة ممارسة العشاء الرّباني)... إننا نجتمع في يوم الأحد لأنه اليوم الأول الذي أحدث الله فيه تغييراً عظيماً في عالم الفوضى والظلام إذ حوّله إلى عالم نور ونظام ولأنه فيه قام يسوع المسيح مخلّصنا من الموت إذ انهم صلبوه في اليوم الذي قبل يوم الزحل (أي

يوم السّبت) ولكنه عاد فظهر لتلاميذه ورسله في اليوم الذي بعد السّبت أي يوم الأحد وعلم تلاميذه هذه الامور(*)...»

فهل بعد ذلك إيضاح؟ إنّ يوستتيانوس وصف هذه العادة الشائعة بعد المسيح بمئة وخمسين سنة وكان المسيحيّون قد استلموها على علاّتها من تلامذة المسيح ورسله.

وقد جاء في كتاب الصّلاة القديم المعروف بتعاليم الرّسل ما نصه:

«وفي يوم الرّبّ اجتمعوا (بصيغة الأمر) واكسروا خبزاً وقدّموا شكراً».

القرن الأول

ونأتي الآن الى شاهد من أهالي المئة الأولى للميلاد وهو القدّيس أغناطيوس الذي كان معاصراً ليوحنّا الرّسول في أواخر أيامه. قال في الفصل التاسع من رسالته الى أهل مغنيسيا:-

« إنّ الذين ربوا على النّظامات القديمة وحلّ فيهم الأمل الجديد لا يحفظون اليوم السّابع بل يوم الرّبّ لأن فيه عادت إلينا الحيوة وقمنا من الموت».

وتفسيراً لهذا الكلام نرى الكلام التالي:-

« فلا نحفظ بعد يوم السبت بحسب العادات اليهوديّة فننغمس في الكسل بل ليحفظ كلّ منكم سبته الرّوحي. ليحفظ كلّ صديق للمسيح يوم الرّبّ عيداً مقدّسا لأنّه يوم القيامة الذي بدأت فيه حياتنا الجديدة وتمّت الغلبة على الموت بيسوع المسيح».

وهذا القول يبيّن لنا الإنتقال من يوم السّبت إلى يوم الأحد. فقد تمّ هذا الانتقال بالتّدريج إذ كان المسيحيّون يحفظون في الأول كلا يوم السّبت والأحد ولكنهم بتمادي الزّمن تركوا يوم السّبت.

وهاك شهادة أخرى بهذا المعنى يرجع عهدها الى عصر الرّسل ولعلّها من أحدهم وهي في الرّسالة المعروفة برسالة برنابا:-

«فاحفظوا اذاً اليوم «الثامن» بسرور لأنه اليوم الذي قام فيه يسوع المسيح من الموت وبعد أن ظهر لتلامذته صعد إلى السّماء».

(تنبيه. لا يعرف صاحب هذا القول تماماً ولكنه قد أسند إلى برنابا. وفي هذه الحالة يرجع عهده الى المئة الأولى لا الثانية. ومهما يكن فإن تاريخه لا يمكن ان يكون أحدث من أوائل المئة الثانية).

(*) إن الكاتب دعى أيام الأسبوع بأسمائها الوثنية لأنه كتب لامبراطور وثني.

أيّام الرّسل

بقي أنّ يوم الأحد هو اليوم الذي كان يحفظه المسيحيّون في أيّام بطرس وبولس وغيرهما من معاصري المسيح كما جاء في بعض أسفار العهد الجديد التي لا نستشهد بها هنا بصفة كونها موحىً بها بل بصفة أنّها أسفار تاريخيّة بسيطة تشهد لحقائق بقطع النّظر عن الوحي.

إنّ السّفر المدعو برؤيا يوحنا اللاّهوتي الذي يرجع عهده الى عصر الرّسل يثبت أنّ قولهم «يوم الرّبّ» كان في ذلك الزّمن لقباً شائعاً ليوم الأحد – (أنظر رؤيا ١: ١٠ كنت في الرّوح في «يوم الرّبّ») هذا ما بشأن الاسم. أما بخصوص ما كان يجري في «يوم الرّبّ» فقد جاء في سفر الأعمال (٢٠: ٧):–

وفي أول الأسبوع إذ كان التّلاميذ مجتمعين ليكسروا خبزاً خاطبهم بولس الخ ..». وجاء أيضاً في سفر كورنثوس الأول (١٦: ٢):

«في كل أول أسبوع ليضع كل واحد منكم عنده خازناً ما تيسّر..»

(إنّ بولس يوصي بالصّدقات في الاجتماعات الدينيّة في يوم الأحد).

هذا وإنّ سبب تقديس اليوم الأول من الأسبوع واضح فإن أصحاب البشائر الأربعة يتفقون في قولهم أنّ فيه قام المسيح من الموت.

وهاك ما قاله كلٌ منهم بهذا الشّأن مما يثبّت صحّة دعوانا:–

متى ٢٨: ١ «وبعد السّبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم المجدليّة ومريم الأخرى لتنظرا القبر» ومرقس ١٦: ٢ و٩ «وباكراً جداً في أول الأسبوع أتينَ إلى القبر إذ طلعت الشّمس. وبعد ما قام باكراً في أول الأسبوع ظهر أوّلاً لمريم المجدليّة التي كان قد أخرج منها سبعة شياطين» ولوقا ٢٤: ١ «ثم في أوّل الأسبوع أوّل الفجر أتين الى القبر حاملات الحنوط الذي أعددنه ومعهنّ أناس» ويوحنّا ٢٠: ١ و١٩ «وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدليّة الى القبر باكراً والظّلام باقٍ فنظرت الحجر مرفوعاً عن القبر. ولمّا كانت عشيّة ذلك اليوم وهو أول الأسبوع وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التّلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود جاء يسوع ووقف في الوسط وقال لهم سلامٌ لكم».

عسى أن يستخدم الله هذه المقالة لتقوية إيمان الذين يؤمنون بموت يسوع المسيح وقيامته ولمساعدة غير المؤمنين على التسليم بهما.